النصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

ومما يلحق بعبادة الكواكب والنيّرات العظمى عند عرب الجاهليّة اكرامهم لزُحَل والشِعْرى والدَبَران والجبّار والثرَيّا يُستدلّ عليه من بعض اقوالهم او من أعلامهم كعبد الثرَيّا وعبد نجم وعبد الجبار. او تعظيمهم لبعض المظاهر الجويّة ومنها الاله قُزَح الذي كان يُكرَم قريباً من مكّة. وقد افادنا يوسيفوس الكاتب في كتابه العاديّات اليهوديّة (Ant. XV, 255) ان عرب آدوم كانوا يكرمون الها يدعوه (Κωζέ) ورأيُ العلماء انهُ قُزَح المذكور واليهِ نسبوا قوس القمام

وكانوا يدلّون على آلهتهم بنعوت شتّى فان اصحاب الاسفار الحديثة في اليمن وفي جهات الصفا كغلازر (Glazer) ودوسو (Dussaud) وجدوا في الكتابات الحميريّة والنبطيّة تقادم لآلهتهم فمنها للاله مالك والاله رحمان والاله رحيم والاله عزيز السابق ذكرهُ. ورُبَّما نسبوا آلهتهم الى بعض الامكنة التي كانوا يُكرّمون فيها مثاله ذو الشرى وذو خَلَصة وذات السلام

ومن الاصنام المذكورة في الكتابات الحجريّة وفي بعض الآثار القديمة والاعلام التاريخية موصوفات شتّى تدلُّ على اسماء معاني كالحظ والسعادة والغنى والعزّ منها الاله جَدّ والاله سَعد والاله رُضا والاله كُثرى والاله وَدّ والاله مَناف فهذه كلها كان العرب يكرمونها ويتفاءلون بها وينتسبون الى عبادتها فدعوا باسمائها عبد الجدّ وعبد الرُضا وعبد ودّ وعبد مناف. وجاءت اسماؤها جميعاً في الكتابات المكتشفة حديثاً. ويقول العرب ان اهل دومة الجندل كانوا يكرمون صنماً على اسم ودّ

وللعرب صنف آخر من الشرك شاع عند أممٍ كثيرة وهو تكريمهم لمواليد الطبيعة (fétichisme) من جماد ونبات وحيوان. فمن آثار تعظيمهم للجماد اكرامهم لحجارة بيضاء او سوداء كانوا يوقعونها موقع التجلّي للقوات العلويّة كانت تُكرم في بعض جهات اليمن والحجاز وبلاد النبط. وكان ذلك شائعاً عند غيرهم من اهل الشرق. فان هيكل الشمس في حمص كان محتوياً على حجر اسود يمثل اله الشمس وكان هليوغابال سادناً

لهُ قبل ان يتولى التدبير كقيصر رومانيّ . وكان ذو خاصة مرودٌ بيضاء . ومن آثار اكرامهم للجماد الانصابُ وهي حجارة كانوا ينصبونها في انحاء بلادهم ذكرًا لآلهتهم ويصبُّون عليها الزيت او الاقط او السمن او يطلونها بدم الذبائح ولعلَّهم اقاموها في بعض المواطن كتذكار لحادث جليل ارادوا تخليده بينهم فأكرموها الأخلاف وعظَّموها

وكذلك كانوا يقيسون المناسك لبعض الاشجار كالنخل . وقد روى الكتبة كياقوت وابن خلدون ان العزى كانت تكرم في نجران على صورة النخلة . وكذلك في نخلة اليمامة مكان قرب مكة (ياقوت ٤ : ٧٧٠) . ومنها ذات انواط قال ياقوت (١ : ٤٩٣) انها شجرة خضراء عظيمة كانت الجاهليَّة تأتيها كلَّ سنة لها فتعلّق عليها اسلحتهـا وتذبح عندها وكانت في جوار مكة . وقد بقي شيءٌ من هذا الاكرام للاشجار حتَّى يومنا في امكنة حيث يعلق بعض جهَّال العرب وغيرهم اخلاقًا واسمالًا من الخرق في اغصان بعض الاشجار لينجوا من الحمَّيات

وكما عبد اهلُ الجاهليَّة الجماد والنبات عبدوا ايضًا بعض الحيوانات والطيور منها النسر الوارد ذكره في القرآن (٧١ : ٢٣) مع ودّ وسواع ويغوث . وممن شهد على كون نسر من معبودات العرب كتاب التلمود (في فصل عبوده زارا) لليهود وكتاب تعليم الرسول عدي في القرن الثالث للمسيح وكلاهما يدعوه باسمهِ الآرامي « نشرًا » وقد امتدت عبادة النسر بين الآراميين . ومنها « عَوْف » وهو اسم طائر صيَّاد واحد اسماء الاسد ورد ذكرهُ كاله في الاعلام فقالوا عبد عوف . وزعم البعض ان اسماء القبائل كاسد ونمر وكلب كانت تدلُّ سابقًا على بعض عبادة يقدّمهـا اصحاب القبائل لهذه الحيوانات . وقد بقي ايضًا اثر هذه العبادة في خدمة بعض الطيور والاسماك في انحاء الشرق كالرها وحلب وطرابلس فانا رأينا ذلك بالعيان

هذا نظر اجمالي في آلهة العرب ومعبوداتهم . ويلحق به عدَّة ابحاث يلزمنا الكلام عنها

(المقامات الدينيَّة) العرب اما اهل وبَر واما اهل مَدَر فكان يصعب على القسم المتبدّي منهم ان يتخذ امكنةً ثابتة لاقامة عباداته ومن ثم كانت الفرائض عندهم بسيطة يقيمونها حيثما حلُّوا اما بتوجيه نظرهم الى الاجرام الفلكيَّة مع ذكر آلهتهم واما ببعض اعمال تقويَّة من سجود ودعاء . وتقادم لاسيما في بعض اطوار حياتهم المهمَّة كولد بنيهم وتزويجهم ودفن موتاهم وفي بعض امكنة عالية يدعونها المشارف . وكان اكرامهم

الماسوني في الغرفة المظلمة بازاء تماثيل شتّى حيث يُطلب منهُ ان يصنع وصيّتهُ الاخيرة

لمواليد الطبيعة يوافق ايضاً حالتهم البدوية فيجدون منها شيئاً اينما ساروا كالانصاب وبعض الاشجار والطيور التي يبنونها ويزجونهـا على مقتضى حركاتها يميناً او شمالاً. وكذلك يتيمَّنون بالصيد السانح ويتشاءمون بالبارح. وكان الاب في عائلته والشيخ في قبيلته يقومان مقام الكهنة ويتوليان اجراء المشاعر الدينية باسم ذويهم

اما اهل المدر وبالاخص الذين بلغوا منهم درجة راقية من التمدُّن كالحيريين والنبطيين ودول الحيرة وكندة وغسان فما كانوا ليكتفوا بهذه العبادة البسيطة وانما خصَّصوا لديانتهم امكنة يفردونها لذلك اما بضارب كانوا يزينونهـا باصناف الجلود والاقمشة على شكل قبَّة العهد في بني اسرائيل واما بتشييد بعض الابنية لهذه الغاية كان بعضُها فخماً اثيراً كمعدان وبعض هياكل النبط مما ظهرت آثاره في هـذه السنين الاخيرة في مدينة سلع وجوارها. وقد نقل الكاتب اليوناني ديودورس الصقلي (Diod. III, 45) عن السائح الاقريطشي اغاثرشيدس في القرن الثاني قبل الميلاد وصفاً لثلاثة هياكل زارهـا في جزيرة العرب قريباً من سواحل البحر. وربما دعوا هذه الهياكل بالمساجد فان لفظة المسجد قديمة وردت في كتابات النبط المكتشفة حديثاً

ومن مقاماتهم الدينية الكعبات وهي بيوت مربَّعة مرتفعة على اشكال الكعاب كانوا يفرزونها لدينياتهم منها ذو الكعبات في شمالي الجزيرة لبني اياد ومنها كعبة نجران والكعبة اليمانية حيث كان بنو خثعم يعبدون صنمهم المسمَّى ذا الخلصة مع غيره من الاصنام. واشهر منها الكعبة الحجازية في مكة واوَّل من ذكرها في التاريخ ديودورس الصقلي في القرن الاوَّل قبل المسيح حيث قال (ك ٣ ص ٢١١) « انَّ في جبات العرب المجاورة لبحر القلزم هيكل يبالغ في اكرامه كل العرب ». وربَّما سمَّوا كعباتهم بالبيوت لانها كانت مكعَّبة. وكثر عدد هذه الهياكل في بعض الامكنة حتَّى ان بليني الطبيعي في القرن الثاني للمسيح عدَّ منها ستين في مدينة سبا حاضرة اليمن و٦٥ في تمنة مدينة بني غطفان

وكانوا يتخذون لهذه المقامات حَرَماً اي يجعلون لها دائرة تحفظ حرمتها ولا يجوز لاحد انتهاكها وكان حَرَم مكة اشهرها. وكذلك كان يخدم هذه المقامات رجـالٌ يدعونهم كهنة او كُهَّاناً ويريدون بهم الخبيرين بالاحوال الماضية والعرَّافين. وربما دعوهم سَدَنة اي خدَمًا للمقدس يقومون بحاجاته وحاجات زوَّاره. ومنهم من تسمَّى باسم هذه

الامكنة كعبد الكعبة وعبد الدار

وكانوا يزيّنون تلك الهياكل بالتصاوير المنقوشة على جدرانها او ينصبون فيها التماثيل للاصنام على هيئات شتّى منها حجارة منحوتة بيضاء او سوداء ومنها صخور من العتيق وبعض الحجارة الكريمة او الصخور العادية كصمد معبود بني كنانة الذي فيه يقول الشاعر :

انينا الى صَمْدٍ لجمعِ شتاتنا فشتّتنا صَمْدٌ فلا نحنُ من صَمْدِ
وهل صَمْدٌ الّا صخرةٌ بتنوفةٍ من الارض لا تدعو لغيٍّ ولا رُشْدِ

ومن الاصنام ما كان يُمثّل اشخاصاً بعينهم يحملون في ايديهم شارات او امتعة يدلُّ على خواصهم الموهومة كودّ وهُبَل جعلوا في ايديهما اقواساً وازلاماً وكالشمس اتخذوا لها صنماً بيده جوهر على لون النار وجعلوا لها بيتاً حجّوا اليه . ونصبوا ايضاً اصنامهم في خارج الهياكل بقربها او على مشارف ليراها الناس كنائة واساف ومناف

وكانوا يكرمون تلك الاصنام بمناسك مختلفة منها حجّهم اليها افراداً او زرافات . وكانوا اذا اغتسلوا او توضّأوا يطوفون حول الصنم دفعات معدودة ويستلمون الصنم او يقبلونهُ و تتقربون منهُ بتلبية معلومة قد دوّن منها الكتبة بعضها كتلبية ذي الكفّين صنم دوس رواها ابن حبيب : « لبّيك اللهمّ لبّيك لبّيك انّ جرهماً عبادُك . الناس طُرُف وهم تلادك . ونحن اولى منهم برلائك » . وروى تلبية نَسر : « لبّيك اللهمّ لبّيك لانتا عبيد . وكأنّا ميسرة وانت ربنا الحميد » . وتلبية شمس صنم تيم : « لبّيك اللهمّ لبّيك لبّيك ما تيارنا نجرهُ . ازلامهُ وحرُّهُ وقرُّهُ . لا نتّقي شيئاً ولا نضرُّهُ . حجّا لربّ مستقيم برُّهُ »

ومن مناسكهم ايضاً انهم كانوا يسكبون السَّكب من خمر او زيت او حليب لاصنامهم او يجعلون امامها طعاماً يأكلهُ الطير وقد ستروا لذلك بعض آلهتهم "مطعم الطير"

وكانوا ايضاً يقصّون عند اوثانهم نواصي اولادهم او يحلقون شعورهم . او يرمون عندها الجمرات وهي الحَصَى كما اثبت ذلك احد كبار المستشرقين العلّامة شوڤين (١ .

وكانت العذارى ايضاً يَرقُصن حول الاصنام مسبلات ذيولهنّ كما قال امرؤ القيس :

فمثلكِ حبلى قد طرقتُ ومرضعٍ فألهيتُها عن ذي تمائمَ مُحوِلِ
فجئتُ وقد نضّت لنوم ثيابها لدى السِّتر الّا لبسةَ المتفضّلِ
فقالت يمينَ اللهِ ما لكَ حيلةٌ وما إن أرى عنكَ الغوايةَ تنجلي
يمينَ اللهِ أبرحُ قاعداً ولو قطّعوا رأسي لديكِ وأوصالي
فمثلكِ حبلى قد قتلتُ وقد أرى بعينٍ مُرضعٍ ومثلكِ بِكرٍ غيرِ فُضّلِ
اذا ما بكى من خلفها انصرفت لهُ بشقٍّ وشقٌّ عندنا لم يحوّلِ

ومن اخصّ مناسك العرب الذبائح لاصنامهم وخصوصاً للّات والعزّى ومناة : فانهم

(١ اطلب كتابهُ في ذلك V. Chauvin: *Le jet des pierres au Pèler. de la Mèque.* Anvers, 1920

كانوا يرون في سفك الدماء وسيلة لاخماد غضب الآلهة وللتقرُّب منهم وطلب رضاهم وما كانوا يأنفون من تضحية البشر انفسهم كما سبق القول. ومن شهد على ذلك برفيريوس الفيلسوف الوثني (١ في القرن الثاني للمسيح « ان اهل دومة الجندل كانوا كل سنة يضحُّون لالههم رجلًا ثم يدفنونهُ بقرب المذبح ». وروى بروكوبيوس اليوناني ومؤرخ سرياني قديم نشر اعمالهُ لند (Land) ان المنذر ضحّى للعزّى ابنَ ملك غسان اسيرَهُ و٤٠٠ من الرواهب المتنسكات في بعض اديرة العراق. وقد اتسع نيلس من كتبة القرن الخامس بوصف غزوات اهل البادية لطور سينا وذكر قتلهم للرهبان الذين هناك وشرح خصوصاً ما حلّ بابنهِ تاودولس الفتى وكيف اسرهُ اهل البادية من العرب فعوَّلوا على تضحيتهِ للعزّى كوكب الصبح. وقد وصف الكاتب ما كان دارجاً عندهم من العادات في مثل هذه المناسك فنرويه هنا مرَّاً للدلالة على ديانتهم فقال يذكر تفاصيل ذبائحهم (٢ :

« وليس لهؤلاء الحنج دين الّا انَّهم يكرمون كوكب الصبح (العُزّى) ويعزّون لهُ ساجدين ويضحُّون لهُ اجود أسراهم الذين اخذوهم في الغزوات وهم يفضلون لذلك الشأن اذا كانوا في عزّ الشباب وصبيحي الوجوه. ويعدُّون لهذه الغاية مذبحاً من الحجارة والصخور اتي يكوّمونها وينتظرون الفجر حتى اذا لاح كوكب الصبح يضربون الضحيَّة بالسيوف ويشربون دمها. وعادتهم اذا لم يقع في يدهم احد من الاسرى ان يضحّوا نافةً من الابل خالصة البياض فيذبحونها ويدورون حولها ثلاثاً ثمَّ يتقدَّم كاهنهم او زعيمهم بكل رونق وهم يتغنُّون باغانيهم فيضرب بسيف اوداج الناقة ويثنّي دمها فيشربهُ ثم يركض الياقون ويقطع كل منهم قطعة من الذبيحة فيأكلونها نيئة ويسرعون في ذلك لئلا يبقى شيء من الجزور حتى الجلد والعظام عند طلوع الشمس. . . »

ثم انتقل الكاتب الى وصف ما جرى لابنهِ الترهب معهُ في جبل الطور والذي كان اسرهُ العرب وعزموا على قتلهِ للعزّى فقال راوياً لما سمعهُ من ابنهِ بعد ان نجا من الاسر :

« وكان هؤلاء النزاة عزموا على تضحيتي لنجم الصبح فأعدُّوا كلَّ شيء للذبيحة في سحر اليوم التالي فاقاموا لذلك مذبحاً وهيَّأوا السيف والسكب والاقداح والبخور وكنتُ انا مُلقًى على وجهي على الحضيض امَّا نفسي فكانت مرتفعةً الى الله ادعو اليهِ بحرارة كي ينقذني من هذا

١) اطلب كتابهُ Porphyrius: *De abstinentia* II, 56

٢) اطلب اعمال الاباء اليونان لمين Migne, PP. GG. LXIX, 611

الخطر العظيم . . . وكان البرابرة قضوا قسماً كبيراً من ليلهم اكلاً وشرباً وقصفاً حتى غلب عليهم النوم فهجعوا الى الصباح ولم يستيقظوا الاّ والشمسُ قد طلعت وفات وقت الضحيّة . . . فلمّا رأوا ذلك اخذوني الى قرية تدعى « سونا » وصمّموا بقتلي امام لعلها ان لم يفدني احد منهم . فرعى احدهم ودفع فديتي واهتمّ بشأني اسفف المحلّ وها انا الان عائد الى والدي »

وكانوا يصبّون دم الضحايا على الانصاب ويطلون به اجسامهم ويقسمون به ايمانهم عند حلفهم دلالةً على صدق مواعيدهم ومنها « اليمين الغموس »

بقيّة اديان الجاهليّة غير النصرانيّة

كان الشرك يعمّ كما ترى بلاد العرب في الجاهليّة ولا نريد ان نحدّد هنا زمنهُ هل امتدّ الى مدّة القرون التي سبقت الاسلام او هل شمل انحاء الجزيرة التي عرفت الاله الواحد الصمد فندع الامر لما بعد

وانما نضيف الى قولنا السابق ما عُرف من الديانات الأُخر في جزيرة العرب غير النصرانيّة بوجيز الكلام

(المجوسيّة) ديانة قدماء الفرس الذين كانوا يعبدون النار ويرون فيها صورة اللاهوت ويقرنون بها عبادة النور . اخذوا هذا الدين من كيومرث احد اجدادهم وخصوصاً من زرادشت حكيمهم . فهل أثّر هذا الدين في العرب فالامر ممكن بل هو محتمل لتقرّب بلاد العرب شمالاً من الفرس ولخدمتهم لملوكهم . ومنّ اشاروا الى دخول المجوسيّة بين العرب ابن قتيبة فزعم انّ المجوسية كانت في تميم والله اعلم

(الصابئيّة) اذا اريد بها عبادة النجوم والسيارات السبع فانها انتشرت خصوصاً في جنوبي جزيرة العرب . اما اذا اريد بها شيعة المندائيين الذين لا يزال منهم بضعة الوف في العراق فانّ تأثيرها في العرب كان منحصراً ومنّ اراد تاريخ هذه الشيعة فعليه بالمقالات المطوّلة التي نشرها حضرة الاب انستاس في المشرق في سنواته الثالثة والرابعة والخامسة فانهُ استوفى فيها الكلام

ويلحق بدين الصابئين مذهب الحرّانيين الذين عبدوا النيّرات السماويّة مدة اجيال طويلة وكان لهم بيت في حرّان يعظمونهُ بقي الى خلافة المأمون فأُخرب . وكذلك المنّويّة المنسوبة الى ماني وتدعى ايضاً بالثنويّة لقولها بوجود مبدأين متناقضين هما النور والظلمة وآل امر هذه الشيعة الى الزندقة وقالوا قول الدهريين

(اليهوديّة) دخل اليهود في ازمنة مختلفة في جزيرة العرب فاستوطنوا في بعض

جهاتها. وعلى الاخص بعد جلاء بابل لما فرّ بعض بني اسرائيل من وجه الاشوريين تتوغلوا في انحاء العرب. وحدث مثل ذلك بعد خراب اورشليم على يد الرومان اذ تشتت شمل اليهود. وكانت سكناهم خصوصاً ما وراء بحر لوط وفي جهات تيماء ووادي القرى في يثرب وخيبر وبعض احياء اليمن. ولم نعلم من اخبارهم الّا القدر القليل (له بقية)

مطبوعات شرقية جديدة

كتاب الكاثوليكي العامل

نقلهُ عن الافرنسيَّة الخوري يوسف ميلاد الحانك

طبع في المطبعة الانطونية في بعبدا سنة ١٩١٠ (ص ٢١٦)

قد بلغنا الى زمنٍ يُقضى فيه على المسيحي ان يدافع عن ايمانهِ وان يسعى بصلاح قريبه ومناهضة العاملين على فسادهِ. ومن ثم سُررنا بان حضرة الخوري يوسف ميلاد الحانك احد اساتذة مدرسة الآباء اللعازريين في دمشق نقل من الافرنسيَّة كتاباً اثنى على مؤلفهِ قداسة الحبر الاعظم والاساقفة الاسبانيون وهو الاب بالو اليسوعي الاسبانيّ. ولما انتشر هذا التأليف نُقل الى عدَّة لغات لنفاستهِ اذ جمع فيه صاحبهُ وصف الفضائل التي يحقّ الكاثوليكي ان يتزيَّن بها في عهدنا مع ارشاد المؤمن الى كل اعمال الغيرة التي من شأنها ان تجذب القريب الى الصلاح وتنقذهُ من وهدة الضلال وذلك على طريقة قريبة المنال تشبه كثيراً طريقة صاحب الاقتداء بالمسيح. فنشكر حضرة المعرّب على عملهِ ونحضّ المؤمنين على امعان النظر في هذا الكتاب والسير على موجب تعاليمهِ ل. ش

مطبوعات مطبعة المقتبس

اهدانا جناب الاديب محمد افندي كرد علي صاحب مجلّة المقتبس ومنشئها البليغ الكتب التي نُشرت في مطبعتها وكان قسم منها طُبع في مجلّتهِ ثم أُعيد طبعها على حدة تسهيلاً للمطالعة. فاوَّلها (رسائل البلغاء) جمع فيها ما وقف عليهِ من رسائل كاتبين جليلين يغني اسمهما عن وصفهما وهما عبدالله بن المقفع وعبد الحميد بن يحيى وآثارهما هذه لم يُطبع منها الّا القليل كالدرَّة اليتيمة التي تولّى طبعها سابقاً جناب الامير شكيب